الجزء السادس

الفصل الثامن

ما تكاد تستفرد حتى تهاجمها أفاعي حزنها اليائس فتجاهد مستميتة لصرعها، وتنفض عنها اللحاف، ثم تذرع الغرفة جيئة وذهابا لعلّ الحركة تخفف عنها حـدة التوتّر القتال..

ماتت رجاء!.. أحقا ماتت رجاء؟..

وراحت تعصر رأسها كي لا تفقده الفجيعة صوابه.. آه لو أن دموعها الضالة الثائرة تهتدي الى منفذها، وتنفجر حتى ينهكها البكاء، وتنضب فيهـا المقاومـة.. وترتمي كالة القوى بين ذراعي نوم رفيق..

ألا من أحد ينتزع مشاعرها من أن تسبح في خضم هائج من الأحزان؟ مـا بالها تذوق مرارة الحاجة الى من يسندها ويحميها؟.. أهو الخوف؟ أهو ضعفها عن الإحتمال؟..

ويخجلها تخاذلها وقد ظنت نفسها متينة صلبة وتستلقي مرة أخرى في فراشها تستدعي النوم فيلبيها بعد لأي، وتستعيد ذاكرتها المعياة حوادث الليلـة الغـادرة.. وتتساءل فيما اذا كانت تحلم، ولكنها تدرك بكلال أنها الحقيقة الرهيبة.. وتـتلمس في الظلام موضع الزر الكهربائي، وهي تلعن في سرها الحارس الذي أطفأ النور إذ اطمأن إلى نومها.. ولكنها تعلم أنها ظلمته وأن التيار منقطع لسبب ما..

ويخطر لبالها أن تذهب إلى بناء المرضى.. قوة خفية تدفعها.. ويبلغ سمعها زمجرة الريح العصوف فلا تبالي.. وتعالج المقبض فلا تفلح.. وتعلـم أن البـاب مقفل على غير عادته.. وتعود إلى غرفتها، منكمشة القلب مـضطربة الأنفـاس، راجفة الجوارح.. لا تدري متى تنجلي الظلمة العاتية المدلهمة وينبثق نور النهار..

وأشرق الصباح مشعشعاً كأنما لم يأسف على ما جناه خدينه الليل.. ووقفـت سلمى مرتكزة إلى النافذة تنظر إلى المبنى الذي يضم حبيبتها الراحلة.. سـتبحث عنها فيها فلا تجدها.. إنها ليست هناك في ذلك الهيكل الساجي.. إنها معها وإنهـا

لتسمع حفيف ثوبها.. بل تراها ترفرف حولها ضاحكة.. إنها منطلقة.. ألطف مـن النور.. وأخف من الهواء.. وأسرع من النار.. إنها سعيدة مغتبطة في عالم رائع..

ولا تدري لمَ تعزيها تلك التخيلات على ضعف إيمانها بها.. إنهـا لتـود أن تنزع من نفسها ما هجس فيها أن الروح ليست إلا أضاليل النفوس الساذجة الهاربة من شقائها تنشد عالماً أكثر إنصافاً لها.. إنها لتود من أعماقها، لأجل رجـاء لأن فيه عزاء.. ولكن أما يعنيها إلا العزاء!.. إنه لمآرب الضعفاء لمن ينشد الحقيقة.. ستطرق بثورة مجنونة الباب النحاسي الجبار، فلعل إشعاعاً ينفذ منه إليهـا.. فمـا يريح نفسها المحيارة هدى العالم والأجيال إن أضلها هداها..

وتنتبه إلى الحارس يمر فتشير إليه أن يعجل فتح الباب الخارجي.. وتحمـل نفسها إلى مبنى المرضى بغير أن تنتبه إلى أنها لا تزال فـي معطفهـا الليلـي.. وتسير بلا وعي إلى الغرفة المكتئبة، فتجدها مقفلة وتدور إلى الشرفة وهي تمـر بمجموع المريضات وقد انكمشن لا ينبسن بحرف وتنفذ بناظريهـا مـن البـاب البلوري بصمت وإطراق.. فيهرع أحد الممرضين ويفتح لهـا البـاب.. فتـدخل بخشوع وقد عقدت ذراعيها إلى صدرها.. ثم تقترب وترفع عن محياها الوشاح.. إن البسمة لا تزال مرتسمة على الفم الـصغير.. وتقبلهـا سـاهمة فـي جبينهـا المرمري:

" أي لغز يكمن وراء هذا اللاشعور؟.. آه للموت العيي لا يجيب أبداً بلـسان الحياة.. ومن يدري؟.. لعل عذره أنه لا يدري أن له سراً نقبته به أوهام البشر!"..

وتتفرس بالوجه الشاحب ملتزعة الفؤاد:

" أما تستحقك الدنيا وقلوبنا التي أحبتك فوق الحب؟ فهل راعك وجود أجمـل فوق السحاب حتى تهجري هذا الوجود الجميل؟..

ها قد تسللت الشمس العطوف.. ونثـرت تبرهـا علـى رؤوس الـصنوبر المنداة.. فلم لا تستيقظين وتحييها بابتسامة عذبة والتماعة عين؟..

إصمتي واصمتي يا أخية، ما صمت الله وثرثر الإنسان.. فالصمت إعجـاز طالما أعيى المنطق العثور!..

ما للخدوش بعدك يا صديقتي في القلب إيلام.. إنني الآن أقوى من كل وقت مضى.. فلا خوف علي بعد اليوم ولن يؤذيني شيء أو ينال مني.. لقـد عرفـت القرار.. فلأتحدى الموت بقلب أكبر من الموت!.. سكون وهل يخشى السكون؟"..

* * *

" أريد أن أنشد أفقاً جديداً.. وأوجه قواي إلى عمل مجدٍ بدل أن أجتر حزني ومرارتي وثورتي"..

هذا ما قالته للطبيب إذ جاؤوا لحمل سهى على السفر معهم فترة من الـزمن للترويح عن نفسها..

وسألها بقلق:

- ماذا ستفعلين؟
- لقد وفقت إلى عمل هنا في إحدى الوزارات.. وسـيتاح لـي أن أدخـل الجامعة.. وقالت الأم محتجة:
- لا.. لا.. لا نستطيع أن نفقدك من المنزل في هذه الفتـرة العـصبية..

وابتسم الطبيب وهو يقول:

- إن المسألة صعبة ولا شك.. إن تعلقكم شديد بسلمى ولكن يجب أن تعلموا أنفسكم فراقها..

ونظر إليها نظرة رقيقة بعينيه الصافيتين الوديعتين وهمس:

- إنني مسافر.. وتنهد ثم أردف:
- لو كان منزلنا ملائماً لدعوتك للحياة معنا..

وأدركت سلمى أي حديث يود أن يجرها إليه، فأجابـت برقـة متناهيـة وابتسامة حزينة:

- شكراً لعواطفك الكريمة.. سأستأجر غرفة عند الراهبات..

كان بادي الإنفعال وهو يعبث بقلمه برسومات لا شعورية ويقول:

- أتركوا سلمى تفعل ما تشاء.. إنها إما أن تصبح ذات شـأن أو تتـزوج رجلاً عظيماً..

ونظر إليها نظرة معنوية يحـاول أن يستـشفّ بهـا نفـسها، فأجابـت والابتسامة الحزينة لا تفارق شفتيها:

- إنني في نفسية لا تصلح للحب والزواج.. لست أفكـر فـي هـذا الآن..

وهمس لها:

- ليس الآن يا سلمى.. ونظرت اليه بتضرع وهمست:
- لا تقل شيئا.. أرجوك يا دكتور!.. فقال كابتا انفعالاته وموجها حديثه الى أمها:
- ان العاصمة تفتح آفاقا لا تتاح لمن يعيش في مكان ناء.. وصمت برهـة ثم أردف محولا الحديث:
- كم من المدة تودون استبقاء سهى عندكم؟ وأجاب عبد الرحمن:
- لتذهب فترة مؤقتة، فاذا ارتاحت للإقامة بيننـا قبلناهـا علـى الرحـب والسعة..
- انها في حالة شافية.. وستستفيد من تغيير الجو.. ولكن المشكلة أهلهـا.. انهم بدو.. وهي الى ذلك متزوجة.. وقالت سلمى:
- فهمت أن زوجها تزوج أخرى.. وأنها لا تريد العودة اليـه، بـل علـى ذلك.. وأجاب الطبيب
- لا تكوني خيالية يا سلمى.. انهم بدو.. وأنت لا تعرفين عقليتهم.. اننـي أعلم أنها ستموت لوعادت اليه أو الى أهلها.. فانهم سيخدعون بمظهرها وسيحملونها من المشاق والمشاكل النفسية ما لا تحتمله.. ان الحياة معكم ستكون جنة بالنسبة اليها.. ولكن أهلها سيعتبرون الأمر إهانة لا تغتفر.. ومن يدريك بأنهم لن يبحثوا عن مقرها ويبعثوا بمن يقتلها؟ انهـا عقليـة البدو ياسلمى..
- ويدخل الممرض يستدعي الطبيب لحالة طارئة.. فقـام علـى عجـل.. والتفتت الأم الى سلمى تحدجها بنظرة عاتبة وهي تقول:
- لست أفهم تصرفك.. لقد أخبرتني رجاء كل شـيء.. انـه يـستطيع أن يسعدك ويرفق بصحتك ويوفّر لك... وأجابت سلمى:

- بالله ياماما لا تضيفي لي ألما جديدا.. ان شعوري نحوه أخوي.. أقـدره وأعجب به ولكن لا أكثر من هذا.. والى ذلك فقد تألمت حتى استبد بـي شعور رهيب يدفعني للهرب من كل جو ومن كل ذكر مرضي.. فكيـف أحيا معه وأنا في مثل هذه الأزمة النفسية؟.. وقال عبد الرحمن:
- ولكن صحتك يا سلمى!.. ان كان هناك من انسان يلائمك فهو طبيب..
- بالله لا تذكر لي صحتي بعد اليوم.. ولا توحي الي بهذا الإيحاء.. انها ان خذلتني يوما فسأضع حدا لحياتي.. كفى.. لقد كرهت نفسي!..
- انني لا أوافقك.. انك لا ترين نفسك.. لكأنك لست سلمى.. استردي قواك أولا، وأجلي مشاريعك للعام المقبل.. والى هذا فإخوتك هناك سـيكونون بحاجة اليك.. وابتسمت بمرارة:
- هل تظن بأنني أصلح بعد اليوم لأمثل حمامة السلام في البيت؟ هذا زمن ولّى.. ان شعوري اليوم رهيب.. فيه نقمة وفيه إشفاق.. ان شـيئا فـي أعماقي لا يغفر لأخوي تصرفهما.. اللامبالاة والإنطواء أفضل بضاعتي اليوم.. ولو ثارت نفسي وانزلق من شفتي ما يعلن شعوري لكان له مـن الإيحاء السيئ ما لا يتنبأ بنتائجه أحد.. لا أريد أن أفقد أخـوي أيـضا فدعوني أبتعد رفقا بهما وبنفسي.. وقالت الأم:
- لن أسمح لك بالبقاء الاّ اذا تزوجت الدكتور.. انـه يريـد أن يحادثـك، وسأذهب وعبد الرحمن لرؤية سهى..

ولم يلبث أن عاد الطبيب وابتسم اذ رآها بمفردهـا، وتـضرج وجهـه بالإحمرار، وقال وهو يعبث بالقلم:

- ليس لدي فرصة أخرى أحدثك بها يا سلمى.. انني كما تعلمين نجحت في المسابقة.. سأذهب للإختصاص في سويسرا.. ماذا تقولين؟ لماذا تنظرين الي هكذا؟ انني أختار أسوأ الأوقات، أليس كذلك؟ ولكن ليس لدي حيلة.. ما رأيك لو تسافرين معي؟.. وتنهدت سلمى وأجابت:
- انني لست واثقة من عواطفي، ولا أحب أن أخدعك، وأهديك قلبا مليئـا بالأحزان.. دعني أكافح ظلام قلبي وحدي..

- ان أحسن ما تكافحينه به أن تغيري نمط حياتك.. أن تفكّري بأشياء جديدة وآمال جديدة..
- كيف أستطيع، وأنا أعيش محنة الزوال بكل جـوارحي؟.. لقـد فقـدت الشعور بأنني في عالم حقيقي.. كانت السيارة تعبر بي شوارع دمـشق، ورجاء مسجاة فوقها.. وكنت أصغي الى رفيف الملاءة المطرزة التـي لفّت بها عمتي النعش وزينت حوافيه بالورود البيضاء، والريح تعبث به كأنما هو طائر علق جناحاه في مصيدة، فبات يرفّ في الجنـاح الآخـر يريد الخلاص.. وخيل لي أن الحياة ليـست الاّ مـصيدة لنـا، لآمالنـا، لطموحنا، لرغباتنا، لأشواقنا.. مصيدة قاسية حادة الأسـنان.. وصـمتت الريح وصمت الرفيف، فاذا بأيد غريبة تحمل النعش وقد تنـاثرت مـن فوقه أوراق الورود التي غرزتها عمتي في ملاءته.. وأيد غريبة تخرج رجاء وتواريها التراب وأمنع من رؤيتها.. أحاط المتطفلون بالحفرة وعبثا حاولت أن أدفع طريقي بينهم، فانتحيت في ركن ورحت أبكي.. وسمعت صوت شيخ مرتزق يقرأ القرآن، صوتا قاسيا، باردا، لا مباليا، ففـارق قلبي آخر خشوع فيه، ورفعت عيني الى السماء.. كانت هـي الأخـرى قاسية، لا مبالية، بل غريبة عاجزة.. وتلاشى لعيني كلّ الأقنعـة التـي يخفي بها المنتفعون ببعدها الموحي بالأسرار غربتها وعجزها..
- ان أناقشك يا سلمى فانك لا تزالين تحت تأثير صدمة نفـسية عنيفـة.. ودواؤك أن تعيشي حياة جديدة، وتؤمني بأن رجاء هي في عالم أفـضل بكثير مما أنت فيه.. انني لا أحب لذكرى رجاء بأن لا تكون في خيالـك الاّ روحا انطفأت مع هذا الجسد الذي عاد الى التراب..
- ليتني أستطيع، ولكن هذا ليس في مقدوري.. ان الإيمان ليس سلعة يمكن للإنسان شراؤها حين يريد.. انها قناعة لا أملكها.. ان روح رجاء تعيش في ذاكرتي في هذا الماضي الذي عاشته دون أن يكون لهـا مـستقبل.. وهذا الماضي يدمي قلبي.. لماذا قاست ما قاسته؟ لماذا تـشردنا ولفحنـا البرد، وعضنا الجوع، ولقيت رجاء هذا المصير؟ وكلما فكرت في هـذا

الأمر تزعزع ايماني بالعدل على هذه الأرض. ومن الأفضل لي أن أفكر بأن هذا العدل من صنع أيدينا من أن أفكر بأنه أزلي.. لقد ضاقت لعيني رحابة السماء لتتسع على آفاق الأرض.. أردت أن أترك طريق الغيبيات وما لايدرك إلى الجانب الآخر من التل.. ولكنني في هذه اللحظة بالذات أشعر كأنني (سيسيف) في الأساطير اليونانية، في مهمته التي لا تنتهي، يجر الصخرة بيديه وقدميه إلى أعلى التل، فإذا ما بلغه عجزت يداه عن دفعها إلى الجانب الآخر.. فتعود الصخرة القاسية تتدحرج مرعدة إلـى السفح ليعود ويدفعها إلى أعلى والعرق يسيل منه والبخار يرتفـع مـن حوله.. لست أعرف طريقي والبخار يلفني من كل مكان، والصخرة تأبى إلاّ أن تعود إلى حضيض العماء، وعبثاً تجد طريقها الآخر إلى المعرفة..

- هناك من المعرفة ما لو قضينا العمر كله في البحث عنها لما وجدناها..
- لا يبدو لي هذا صحيحاً.. إنني لا أبالي بالغيبيـات.. أريـد أن أعـرف الطريق إلى سعادة الإنسان، الطريق الذي لا يتشرد فيه ولا يجـوع ولا يلفحه البرد..
- إبحثي عما تريدين.. أنا لا أحرمك من المعرفة..
- لا أستطيع أن أنجح إلاّ إذا وهبت هذا الأمر كل قوتي وعرقي ودمـي.. أما إذا اخترت الزواج فيجب أيضاً أن أهبه كل قوتي إن أردت أن أكون منصفة مع نفسي!..
- لا تكوني خيالية.. أنت الآن في مقتبل العمر والزمن يبـدو ملكـاً لـك، ولكنك لن تكوني في مثل هذه الثقة بعد عشر سنوات مثلاً.. فتـصوري ألمك حينما تجدين بأنك أضعت العمر بحثاً عن سراب.. وحتى المجد لن يحميك من شعور الوحدة والتعاسة!..
- لست أبحث عن مجد، بل عن انسجام مع نفـسي ومـع العـالم الـذي يحيطني.. ألست انسانة؟ ألست أتمنى أن أعيش حياة طبيعية، ويكون لي زوج أحبه وأطفال أسعد بهم؟ ولكنني أجد عبث كل شيء، وسأحرم إلـى

هذا من حريتي، من هذا المدى الفسيح الذي أود أن أنطلق فيـه دون أن يعترضني أحد..

- إنني أثق بك ولن أعترض حريتك..
- إن هذا الأمر خارج عن حدود إرادتك تقوله لي اليوم وتنساه فيما بعـد.. إن ما هو مثار إعجابك الآن ربما يكون سبباً لامتعاضك وألمك فيما بعد، أكان هذا الشعور سافراً أم صامتاً.. لقد باتت معرفتي بك وثيقة.. وأنـا أعلم أنني لست الفتاة التي تلائمك..
- إن كنت تقولين هذا القول لأنك تعتقدين أنك ستجدين فرصة زواج أفضل فأنا لا ألومك.. ستدهشين رجالاً آخرين ولكن ثقي أنك لن تجدي في مثل تقديري وفهمي لك..
- لست أفكر في شيء من هذا.. لست طموحة كما يخيل لك.. انني أبحـث عن عزاء لنفسي، وأريد أن أنتصر على آلامي.. انك تستحق أن تـسعد، رجل ممتاز، شهم، رفيع الخلق، ولكن العيب في.. نادرون من الرجـال الذين يستطيعون احتمالي!
- انني مستعد أن أحتملك ان كان هذا ما يخيفك..

وصمتت سلمى فحارت عيناه في وجهها تسألانها:

- هناك سبب نفسي أيضا بالنسبة لي..
- ما هو؟
- كانت رجاء تحبك!...
- واهمة! طفلة، وعمري يبلغ ضعف عمرها!...
- أنا التي شجعتها.. كنت أتمنى بذلك أن أوقظ عندها غريزة الشفاء..
- لو كانت حية لما أسعدها شيء كزواجنا.. كان فرحها بالغا حين خبرتهـا بالأمر..
- ان انسجامي مع نفسي سيكون مستحيلا.. لا يمكنك أن تدرك شـعوري.. كأنني أسرق سعادة لا أستحقها من عينين ينخرهما الدود تحت التراب..

- سلمى انني أعلم أن الوقت غير مناسب لأحدثك بهذا.. ولو لم أكن مسافرا لما فاتحتك به اليوم.. أردت أن أنقذك من حزن لا فائدة فيه.. فهناك في الجبال وأمام روعة الطبيعة تندمل الجروح وتكتبين.. وما يكفي واحـدا يكفي اثنين.. ولقد وفّرت من عملي ما يجعل حياتينا في يسر.. وتنهـدت سلمى وأجابت:
- لا أريد أن أنسى.. ان كل الناس ينسون، أما أنا فلـيس مـن حقّـي أن أنسى.. ليس من حق الأديب أن ينسى لأنه ضمير الأمة.. وأنا عاهـدت نفسي أن أجعل من أدبي رسالة.. لقد طويـت مأسـاة شـعب فلـسطين واللاجئين، والذين ماتوا في المعركة، والذين هلكوا بعدها.. والذين بقـوا وأصبحوا عبيدا في أوطانهم.. ونسي العرب أمرهم وعادوا الى غفـوتهم حتى توقظهم نكبة أخرى.. لقد أصاب ارادة الكفاح العامة الـشلل وكلنـا نموت موتنا البطيئ!..

وعاد الممرض يستدعي الطبيب، فوقفت سلمى ومدت يـدها مودعـة.. وتملّك الطبيب الإضطراب وأخذ يعبث بالقلم بعصبية، ونظر اليهـا بعتـاب حزين:

- هل أنت باقية في المدينة؟
- لست أدري.. سأفعل جهدي..

ولكن سلمى تعود.. تحلم حلما رهيبا أن خالد على شفا جرف ينهار والهوة فاغرة فاها لابتلاعه.. لشد ما عانت من عذاب في رؤياها، وأفاقـت وهـي تبكي.. لا.. لا تستطيع أن تفقده هو الآخر.. كذب ما هجس في نفسها أنهـا قادرة أن تحقد عليه أو على أخيه أو تحملهما في ضميرها مسؤولية ما جرى في النكسة التي حدثت لرجاء.. وتهلّل وجه عبد الـرحمن غبطـة بقرارهـا وهمس: "يا لسلمى الغريبة الأطوار!"..

* * *